من تراب الطريق (٤١٥)

حياة الروح(*) هذا الشيء المجنح

عشت مع جورج سانتايانا الفيلسوف الأمريكى فترة غير قصيرة ، طالعت فيها بعض أعماله، ونقلت إلى العربية من سنوات بابا من كتابه «حياة العقل «Life of Reason ، كتبه تحت عنوان : قد تكون الديانة تجسيدا للعقل ، وبالإنجليزية :How religion may be anembodiment of reason . أورده سانتايانا ضمن جزء أكبر من كتاب بعنوان العقل فى الديانة Mind in religion ، وبقيت مخطوطة الترجمة لدّى طويلا ، حتى دفعت بها إلى مجلة الهلال الشهرية التى جعلت تنشرها على مدى عشرة أعداد ، قبل أن يجمعها «كتاب الهلال «فى عدده رقم ٧٠٧ـ الذى صدر فى نوفمبر ٢٠٠٩ .

وقد قرأت مؤخرا فصلا من كتاب سانتايانا : «الأفلاطونية والحياة الروحية» ـ والفصل بعنوان «حياة الروح ذلك الشيء المجنّح» The life of this winged thing spirit ، أحببت أن أنقل إليك بالعربية هذا الفصل أو هذه اللطيفة ، فيها يقول سانتايانا :

تتميز الحياة الروحية عن الأخلاقية الدنيوية والذكاء ، بمفارقة الوهم مع معاناة هذه المفارقة ـ وليس بالمزيد من المعرفة . ومهما يكن حظها فى الدنيا متواضعاً، فإنها ترفع المساعى العادية أو القليل منها إلى ضياء الخلود . لأن الجانب الخالد من الأشياء ينتزع الروح من انغماسها الأوّلى فى الحس الحيوانى

(*) المال ٣/٣/٢٠١٠ .

والإيمان الحيوانى (animal faith) لكى تصير روحًا نقية ، علمًا بأن الجانب الخالد فى الأشياء هو هو جانبها المباشر .. لأن خبرتنا بأى موضوع متى طرد منها القلق والاعتقاد يتبقى منها جوهرها فقط .. هذا الجانب المباشر من الأشياء نهائى من الوجهة السيكولوجية والاستبطانية ؛ لأن وجود الشىء الواقعى المعين عرضى ، مبناه ظروفه ، بينما وجوده كتنويع للوجود العام الضرورى ـ وجودٌ دائم لا يُمحى ، والروح تعيش فى إحساسها بالنهائى ضمن المباشر !

إن الروح الفانية أى الروح فى الحيوان ، لا يمكنها أن تمسح مساحة الوجود العام النقى فى لا نهائيته ، لكنها بقدر ما تتخلص من الانفعال الحيوانى والإيمان الحيوانى ـ يمكنها أن تشاهد وجودًا ما محدودًا فى نقاوته ..

والدين والأخلاق بحمايتهما العيون من الأضواء والتشتيت ، وبتركيزهما على المواضيع النبيلة ـ يمهدان تربةً للروح أفضل من الحياة المشتتة الشاردة ، ولا يعنى قولنا هذا أن الروح قد لا تظهر بصورة مدهشة فى الخطاة والعصاة كما تظهر فى الشاعر والطفل !

ثم يقول سانتايانا : ولكن إذا قامت الأخلاق والأديان ببسط الضغط على الروح أو بالمبالغة فيه ، فإنهما يصبحان شيطانين بالنسبة للروح .. لا يقلان فى ذلك عن البحث الحيوانى عن الطعام أو الجنس أو السلامة .

ثم أليست الأخلاقية عدوًّا أشد للروح من اللاّ أخلاقية ؟ أليست أكثر خداعًا وأشد تقييدًا ؟ ألم يكن أولئك الشعراء الرومانسيون فى حياتهم غير المنتظمة أكثر روحانية من الجمهور الصالح الذى أزعجوه ؟

شيلى وليوباردى وألفريد دى موسيه كانوا أساسًا أطفالًا من أطفال الروح ، طاروا بأجنحة محطمة ينقصهم التزام الحد والانضباط ، فكانوا فى حالة تشرد روحى لم يتعلموا رؤية نسبية عواطفهم شديدة الكبْر .. لم يتعلموا أن الروح الكاملة صابرة على التحمل والتعلم .

إن العالم ليس عالمًا محترمًا .. إنه عالم فانٍ متحيِّر مخدوع على الدوام .. ولكن يتخلله جمال وحب وومضات شجاعة وضحك ، وفى ذلك تنفتح الروح مترددة خائفة كادحة إلى النور من خلال الأشواك.

تلك هى الحياة المناسبة للروح .. ذلك الشيء المجنّح ..على هذه الأرض القديمة المادية غير النظيفة .. والروح من جهة سعيدة بأن تحيا لحظتها لا تفكر فى الغد .. لأنها تستطيع أن تستمتع بأصغر العطايا كما تستمتع بأعظمها .. إنها صوت الطبيعة النقى النضر العذب .. ليس فى وسعها تكلف المظهرية الأخلاقية أو المظهرية العرفانية . إنها تتجاهل أصلها .. فى انطلاقها ونورها المعجز ـ يبدو ذلك لعينها شيئا عاديًا . تجد عملها فى كل مكان ـ مضغوطًا عليه ومشروطًا من خارجه ، لكنها تمر خلال النار هادئة لا تأبه ولا تصدق ولا تقهر .. ومن جهة أخرى فإن الروحُ ترى المرئى فى إطار اللا مرئى الذى هو الإطار الصحيح ، وتركز عينها بالفطرة على اللحظات التى لا عداد لها .. هذه اللحظات التى ليست هى اللحظة الحالية ، وتركز عينها على المسرات التى ليست هى هذا الحزن ، وعلى الأحزان التى ليست هى هذا السرور ، وعلى آلاف الآراء التى ليست هى هذا الرأى ، وعلى ألوان الجمال التى ليست هذا الجمال .. إنها تفهم كثيرًا جدًّا بحيث لا يمكن قط حبسها ، وتحب كثيرًا جدًا بحيث لا يمكن أن تقع فى غرام أحد .. إنها أى الروح تجعل الجسد

باردًا وهى نار .. أو كما قال الكاهن «دين» : إن الفكر إذا اشتد واحتد يجعل العواطف باردة ـ لأنها تواجه وتضبط ، ومع التفكير العميق ـ وحيث الضحكات والدموع تنبض معًا ـ كالنجوم فى سماء قطبية كل منها يلمع لمعانا لا يختفى ، وجميعها بعيد بعدًا ليس له حد !

*****